«هُوَ»

كبير هو.. عظيم جدًّا، ليس كأي شخص عظيم آخر، إنما أعظم من أي شخص عظيم آخر.. حنون هو، كالأمهات.. لا لا، لقد تخطى حنانه حنان الأمهات بكثير، لا يريد شيئًا سوى أن يساعد من يحتاج إلى مساعده، ويعطف على من يحتاج إلى عطف.

يعرف كل الناس ويعرفه بعضهم، يحبه كل من يعرفه.. من يعرفه بحق، ومن لا يعرفه بحق يرى منه شيئًا غير قابل للتصديق.

ذات يوم بنى بناء يأوي كل البلدة، بدون مساعدة من أحد، وبدون أن يطلب منه أحد، وبدون أدنى مقابل، لا يتطلب أن يكون للشخص صله قرابة به كي يساعده، غرق أحدهم في بحر وكاد أن يفتك به ولكنه أنقذه، كادت النار أن تضرم بأحدهم لولاه، قليل الظهور بين الناس، ولكنه مؤثر، مؤثر حتى في الأوقات التي لا يظهر بها، بإمكانك إن تأملت قليلًا –وبدون جهد– سترى تأثيره على كل ما يحيط بالبلدة.

في كل حقبة يكون له شخص يحاول أن يقنع الناس باتباعه، وإقناعهم أنه لا يريد شيئًا سوى سعادتهم، وهو حقًا لا يريد شيئًا من أحد، ولكن يريده الجميع بالفطرة، عندما يمرض الشخص الذي يتبعه أو يموت.. بالأحرى أن يكون غير قادر على تكملة المسيرة، يظهر شخص آخر.

كان هناك شخص يدعى «سامي»، كان يحبه جدًا وهو أيضًا يبادله الحب، سامي أب لثلاثة أولاد وابنتين، بدأ سامي هذا في إقناع الناس به، فرأى أن يبدأ من بيته، دخل بيته ذات يوم وقال لأولاده:

ـ ما سيقوله لكم نفذوه بدون أدنى مناقشه.

وافق اثنان من أبنائه وبنت من الاثنتين، قال له «ك» وهو أحد الرافضين لكلام والده:

ـ ولماذا أتبعه هو؟

رد والده بهدوء:

ـ لأنه الصحيح.

ـ ....

ـ لا تجادل وافعل ما أطلبه منك.

ثم أردف:

ـ وأنت يا «ب» ما سبب رفضكِ لما أطلبه؟

لم تعرف ماذا ستقول، ولكنها كانت تعلم جيدًا أن والدها لا يقول شيئًا إلا ويكون صوابًا، وتعرف أيضًا أن من يطلب منهم والدهم اتباعه هو من بنى لهم البناء الذي آواهم وساعدهم كثيرًا، ولكنها –ورغم ذلك– رفضت، رفضت لمجرد الرفض أو ربما كان رفضها هذا لم يكن سوى كبر.

خرج سامي من بيته متجهًا ناحيته، فوجده ينير مكانًا يعمل به بعض الفلاحين بكشاف كبير، فلما سأله لماذا تفعل هذا؟ قال:

ـ كي لا يغوصوا في الظلام.

فقال أحد الفلاحين مستنكرًا:

ـ لا، اذهب ودعنا نتولى أمورنا، باستطاعتنا أن ننير لأنفسنا.

قالها وأخرج كشافه وأناره، ولكنه كان كشافًا صغيرًا، فلم يستطيعوا أن يروا شيئًا.

فذهب هو وأخذ كشافه، وتركهم، ولكن قال أحدهم:

تعال، تعال، نحن لا نستطيع الرؤية بدون كشافك، ولكنه لم يرد وأكمل مبتعدًا.

فتبعه سامي إلى أن وصل إلى مكان يمكنه من رؤية هؤلاء الفلاحين، فقال له سامي:

ـ لماذا توقفت هنا؟

ـ لو أرادني أحد منهم فسوف يبحث عني.

ـ هم لا يعرفونك من الأساس، وسنفترض أن أحدهم جاء ليبحث عنك، هل ستساعده بعدما قال لك إنه يستطيع مساعدة نفسه ولا يحتاجك؟

ـ لو بحث عني أحدهم هذا معناه أنه في حاجه إليَّ؛ وأنا لن أرد شخصًا في حاجه إليَّ، فهمت؟

لم يرد سامي ولكنه قال بعد نصف ساعة لم يتغير فيها شيء:

ـ سأذهب أنا الآن، فأولادي في حاجه ماسه إليَّ.

سمح له بالذهاب وظل واقفًا في انتظار أن يبحث عنه أحد الفلاحين فيساعده ولكنه لم يحدث، حتى الصباح!

ذات يوم عرف أن سامي مات، فذهب لأولاده بعد أسبوع من وفاته، وقال لهم إن والدهم قد أوصى أن يتبعوه ويفعلون ما يريد، فقال له «ك»:

ـ قال والدي هذا قبل وفاته، ولكني لم ولن أوافق.

«ك» يعرف أن هناك شخصًا يستحق أن يتبع، ولكنه لا يعرف من هو هذا الشخص هل «هو» أم من؟ فيرفض اتباعه لحين التأكد من ذلك.

قالت «ب»:

ـ وأنا أيضًا.

قال هو محدثًا الباقي:

ـ وماذا عنكم؟

رد أكبرهم سنًّا وهو «م»:

ـ موافق.

ثم ردد كل من «س»، و«ي»:

ـ ونحن أيضًا موافقون.

قال:

ـ ستفعلون ما سأطلبه منكم، وبهذا سوف تغدو البلدة في أحسن حال.

صمتوا لدقائق ثم قال أكبرهم سنًّا:

ـ موافقون.

هكذا هناك بنت وولدان معه، وبنت وولد ضده.

بعد عدة أيام بدأ ينضم إلى فرقته أناس آخرون من البلدة، وبدأوا في تنظيف البلدة من كل شيء، وعلى الجانب الآخر بدأ آخرون ينضمون لـ«ك» و«ب»، وبدأت الأعداد تتزايد لدى الفريقين، من هم في فريقه كانوا لديهم العديد من الأسباب لاتباعه، ومن هم ضده كان لديهم أيضًا أسباب لفرضهم له.

ماتوا أولاد سامي كلهم واحدًا تلو الآخر، ولكن لم يمت موضوعهم، فمن كانوا يتبعوه جاء من بعدهم أناس يكملوا المسيرة، ومن كانوا يرفضوه جاء أيضًا من بعدهم من يعيش لرفضه وعدم اتباعه.

ومع تعاقب الأجيال، ووفود مؤيدون جُدد لكلا الفريقين، راح كُل فريق يقول إنه على صواب، وأن الفريق الآخر على خطأ، فبالنسبة لفريقه كانوا يقولون إنه هو من فعل كل شيء في هذه البلدة؛ فهو الذي بنى البناء الذي يحتمون به الآن، وهو الذي جعل البلدة في حاله جيدة، والفريق الآخر ينكرون وجوده من الأساس فيرددون:

ـ ماذا يثبت لنا أنه من فعل كل هذا؟ ألم يَكُن هذا محض صدفه؟!

فيجزم فريقه على أنه هو من فعل كل هذا ويجب علينا أن نسير على نهجه، وأخذت مشاكلهم في التفاقم.

لم يكن هذا هو ما حدث فقط، إنما نشبت التفرقة بين أفراد الفريق الواحد، فمثلًا، فريقه أصبحوا جماعات كل جماعة لها اسم يميزها؛ فهناك جماعة «م» وجماعة أخرى تدعى «س»، وأخرى تدعى «ي»، وكل جماعة منهم ترى أنها تسير على نهجه بالطريقة الصحيحة، أما الفريق الآخر نشب بينهم روح التفرقة، فجماعه «ك» ينكرون وجوده، وجماعة «ب» ينسبون ما حدث للقرية من تطور إلى آخر.

وأثناء هذه المعركة ظهر شخص غريب عن البلدة، لا يعرف أحد منهم ولا يعرفه أحد، ولكنه سرعان ما سمع عن مشكلتهم؛ فجلس مع فريقه وسمع منهم، وجلس مع الفريق الثاني وسمع

منهم أيضًا، وذات يوم حين اجتمع الفريقان في السوق، وقف هذا الغريب وقال بعلو صوته حتى يسمعه الجميع:

- لن أتكلم عمّن منكم على صواب ومن على خطأ، ولكن كل ما يمكنني قوله إن هناك أشياء عدة قد فُعِلت، هناك أشياء قد وجدت.

صمت لبرهة، ثم أكمل:

- فعليكم أن تتجردوا من كل انتماء، وأن تبحثوا حتى تعرفوا الواجد.